تصوف الشرفاء : الممارسة الدينية والاجتماعية للزاوية الوزانية من خلال مناقبها

محمد المنصور

إن أهم مايميز الزاوية الوزانية هو النسب الشريف، وهي ميزة طغت على كل الأبعاد الأخرى في حياة الزاوية، وكيفت، من جملة ما كيفت، طبيعة المناقب التي ألفت حول شيوخها. فالأهمية التي احتلها الشرف في حياة الزاوية جعلت مناقبها تشبه في كثير من الأحيان كتب الأنساب، بل إن مؤلفا مثل *الروض المنيف*(1) يكاد يكون عبارة عن شجرة نسب متشعبة الفروع. إن قراءة مناقب الزاوية من شأنها أن تساعدنا على فهم أفضل للتصور الذي كان للشرفاء الوزانيين لدورهم الديني والاجتماعي وتسمح لنا بإدراك أعمق للعلاقة التي كانت قائمة بين التصوف والشرف في ممارسة الزاوية.

أسست الزاوية الوزانية عند منتصف القرن السابع عشر في وقت أصبح فيه شرف النسب ركنا أساسيا من أركان المشروعية السياسية والدينية على السواء. وإذا كان أثر الشرفاء على تطور التصوف بالمغرب قد أصبح أمرا ملموسا منذ القرن الثالث عشر، فإن هيمنة الشرفاء على الحياة الصوفية بعد القرن الخامس عشر تعززت بشكل كبير. وربما كان شمال المغرب مؤهلا أكثر من مناطق أخرى ليصبح حقلا خصبا لازدهار التصوف بقيادة الشرفاء وذلك لعاملين أساسيين : أولا، احتضان المنطقة

---

(1) *الروض المنيف في التعريف بأولاد مولاي عبد الله الشريف* لعبد الله بن الطيب الوزاني (كان حيا عند بداية القرن العشرين)، وهو في جزءين : الجزء الأول منه موجود على ميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط (رقم98)، ويوجد الجزء الثاني مخطوطا (ك2304). وبخصوص هذا الجزء الثاني فقد اعتمدنا على نسخة خطية خاصة.

لنسبة هامة من الشرفاء الأدارسة، وثانيا، موقعها المتقدم في المواجهة مع الأوربيين من خلال الثغور الشاطئية. وإذا كان رجوع الشرفاء إلى السلطة السياسية مع السعديين والعلويين قد جاء كتتويج لمسلسل رد الاعتبار لآل البيت، كان للحركة الصوفية نفسها نصيب فيه[2]، فإن الدور الذي لعبه الشرفاء العلميون في مواجهة الاحتلال الايبيرى زاد في شعبيتهم وسمح لهم باستقطاب الحماس الديني وتأطيره عبر الزوايا التي أسسوها بالمنطقة (الريسونية، الوزانية). إن استيلاء الأشراف السعديين والعلويين على السلطة السياسية قد قطع بدون شك الطريق أمام ظهور مطامع سياسية لدى الشرفاء العلميين، لكن وكما يقول صاحب *الدر السّني* فإن الله منحهم ماهو أعظم من السلطة الدنيوية فعوضهم عن «الخلافة الملكية» ب«الخلافة القطبانية»[3].

الشيخ المؤسس، شيخ تصوف

تقدم لنا مناقب الشرفاء الوزانيين نموذجين مختلفين للشيوخ الذين تولوا شؤون الزاوية. فهناك نموذج الشيخ المؤسس، وهو شيخ التربية الصوفية، وهناك نموذج ثان ينطبق بدرجات متفاوتة على خلفاءه وهو نموذج «الشيخ البركة»[4]، وبين النموذجين اختلافات واضحة. فمناقب المؤسس كما تناولتها *تحفة الاخوان* ببعض

(2) نشير هنا إلى الدراسة الهامة لمحمد القبلي «مساهمة في تاريخ التمهيد لدولة السعديين» *مجلة كلية الأداب بالرباط*، 3 — 4 (1978) ص 7 — 59، والتي وقفت على مسلسل رد الاعتبار للشرفاء انطلاقا من العصر المريني.

(3) عبد السلام بن الخياط القادري (ت1813)، *التحفة القادرية في التعريف بشرفاء أهل وزان*، مخطوط الخزانة العامة ك2321، الجزء1، ص 6.

(4) ينطبق هذا التصنيف على جل الأسر المرابطية. وقد أشار بول باسكون إلى التطور الذي عرفته زاوية ايليغ Paul Pascon,*la maison d'Iligh*, (Rabat, 1984), pp. 43 - 44) وكيف تحول خلفاء الشيخ المؤسس إلى مجرد مستفيدين من الرأسمال الرمزي الأصلي. وعلى الرغم من أوجه الشبه الظاهرة بين نموذج ايليغ ونموذج الزاوية الوزانية (وكذلك نموذج مرابطي الأطلس حسب إرنست جيلنر) تبقى هناك اختلافات هامة تحكمت بشكل واضح في ممارسة كل من الزاويتين. في مقدمة هذه الاختلافات دور عنصر الشرف الذي مثل الرأسمال الأساسي بالنسبة للوزانيين، في حين لايظهر إلا بكيفية ثانوية في تاريخ زاوية ايليغ. ثم هناك فرق جوهري آخر يتعلق بطبيعة التجربة الايليغية والتي تميزت بالانتقال الصريح من المجال الديني (سواء كان يعتمد على التصوف أو على الشرف) إلى المجال الدنيوي والسياسي. فالزاوية الايليغية ولجت، ومنذ وقت مبكر، المجالين السياسي والتجاري وتخلت حتى عن بعض المميزات التي يعتبرها جيلنر أساسية بالنسبة للمرابط، ألا وهي المسالمة من جهة والابتعاد عن الخوض في الصراعات القبلية من جهة ثانية (بخصوص تورط زاوية إيليغ في الحروب القبلية أنظر المختار السوسي، *زاوية ايليغ قديما وحديثا*، الرباط، 1966).

انظر كذلك Hassan El Boudrari, «quand les saints font les villes. Lecture anthropologique de la pratique sociale d'un saint marocain du XVII^e siècle», *Annales ESC*, mai-juin 1985, pp489-508

مناقب شرفاء وزان[5] أو *التحفة القادرية في التعريف بشرفاء أهل وزان* لا تختلف في منهجها وأسلوبها عن المنهج والأسلوب المتداولين لدى مؤلفي المناقب بصفة عامة. فتجربة مولاى عبد الله الشريف (ت1678) تبدأ بالتتلمذ على شيخ التصوف سيدي علي بن أحمد الكَرفطي ثم الانتقال إلى تطوان وفاس لطلب العلم، قبل أن ينقطع عن الخلق في خلوة طويلة توجت بالفتح وبداية نشر الطريقة. فحياته هي حياة المتصوف الزاهد في الدنيا، والمناقب، وإن كانت تؤكد على شرف نسبه، فهي تهتم أكثر بسلوكه وتربيته وأسانيده الصوفية[6]. إن الممارسة اليومية التي ميزت حياته بعد حصول الفتح هي ممارسة صوفية قبل كل شيء، فمولاي عبد الله الشريف كما يتجلى من *التحفة القادرية* هو شيخ تربية منقطع للعبادة، يقضي جل وقته في تلاوة الأوراد والأذكار والأحزاب وتلقينها لمن يقصده من المريدين ؛ كما كان يخصص ماتبقى من وقته لتدريس التصوف ومبادىء العلوم الفقهية. وهذا الانقطاع للعبادة جعله يزهد في أمور الدنيا ويوكل تسيير شؤون الزاوية المادية من تحصيل أسباب العيش اقتبال الزائرين وإطعامهم إلى وكلاء له ينوبون عنه في ذلك، حتى لا يشغله شاغل عن التعبد وتلقين المريدين[7].

لكن مولاي عبد الله الشريف لم يُسقط تعاطي الأسباب من حسابه، فتوفير الملجأ والمأكل لآلاف المريدين كان يتطلب رصيدا ماديا هاما. ثم إن مولاي عبد الله نفسه لم يعرف في شبابه الفقر والخصاصة حتى يقنع بحياة القلة والتقشف التي كانت من نصيب الكثير من المتصوفين. فأسرته كانت محظوظة نسبيا وكان لها من الأملاك ماسمح لها بإرساله إلى حاضرتي تطوان وفاس لمتابعة دراسته بهما. كما أن وضعيته كطالب بمدينة فاس تظهر أنه كان يعيش حياة بعيدة عن الخصاصة. فخلال وجوده بالمدرسة المصباحية استغنى عن قبض راتب الأحباس، بل تمكن حتى من استئجار خادم ليطبخ له طعامه، وهو ترف لم يكن في متناول جميع الطلبة. كل هذا يشير إلى أن مولاي عبد الله الشريف، رغم تصوفه، لم يكن مستعدا للتخلي عن قدر أدنى من سعة العيش. ومما يؤكد هذا المتخلف الذي تركه مولاي عبد الله الشريف عند وفاته، حيث اشتملت تركته على ما يزيد على 1.100 من رؤوس الغنم

(5) *تحفة الاخوان ببعض مناقب شرفاء وزان* لحمدون الطاهري (ت.1778) والمطبوع بفاس سنة1906.

(6) *أنظر التحفة القادرية*، الجزء1، حيث يخصص المؤلف حيزا واسعا للأسانيد الصوفية ومرويات مولاي عبد الله الشريف من العلوم الدينية.

(7) *التحفة القادرية* 2، ص 420.

ومايقرب من 100 من البقر والدواب وثلاثة من العبيد. لكن لايظهر مع ذلك أن هذا التراكم النسبي الذي حصل في ثروة الزاوية قد نال من زهد مؤسسها الذي كان إذا ذكرت الدنيا في مجلسه قام منه وتركه[8].

من طريقة التربية إلى طريقة التبرك

إذا كان الشرف يورث فإن الأمر لاينطبق بالضرورة على التصوف. فخُلفاء مولاي عبد الله الشريف، وإن كانوا قد تربوا في وسط مشحون بالقيم الصوفية، فهم لم يرثوا دائما عن مؤسس الزاوية حماسه الصوفي الذي لايكون في الغالب إلا نتيجة تجربة شخصية واستجابة لنداء باطني قد لايكون مُعديا في كل الأحوال. لذلك فإن خلفاء مولاي عبد الله الشريف سيستثمرون شرف نسبهم أكثر مما سيستثمرون الارث الصوفي، وسيصبحون شيوخ بركة يُقصدون للتبرك أكثر مما يُقصدون للهداية الروحية.

فبعد وفاة الشيخ المؤسس سيحل الشرف محل التصوف كأساس لمشروعية النفوذ الروحي للزاوية، وكمرجع ستتنامى قوة حضوره مع مرور الزمن، وسوف تكون المناقب مرآة لهذا التحول، ولكن الأهم من ذلك ستكون أداة لتبريره. فما هي التحولات التي طرأت على ممارسة الزاوية وكيف وظفت المناقب لتقديم هذه التحولات في قالب يوحي بالاستمرارية وبالوفاء لمبادىء المؤسس ؟

تقديس النسبة الشريفة :

إن التصوف الذي ستعرفه الزاوية في عهد خلفاء مولاي عبد الله الشريف هو تصوف يغلب عليه تقديس النسب الشريف. إن باب الوصول إلى الله أصبح يمر عبر آل البيت وليس بالضرورة عبر التربية والمجاهدة، فالشرفاء هم باب الرسول كما يقول صاحب *الكوكب الأسعد* «وليس هناك مدخل غير مدخله»[9] والانتساب للشرفاء أصبح في حد ذاته شرطا كافيا لنجاة المومن من العقاب. وكُرس هذا الاعتقاد عبر تسمية «دار الضمانة» التي ظهرت خلال مشيخة سيدي محمد

(8) *تحفة الاخوان*، ص47.

(9) محمد بن حمزة المكناسي، *الكوكب الأسعد في مناقب سيدنا ومولانا علي بن أحمد*. مطبوع على هامش *تحفة الاخوان* المذكور أعلاه، ص32.

(ت1708)، خليفة المؤسس، والذي ضمن الجنة لكل من انتسب للشرفاء : «مقامنا هذا كمقام إبراهيم من دخله كان آمنا من النار»(10).

البركة بدل الطريقة

إن تضاؤل المحتوى الصوفي في ممارسة الشيوخ الخلفاء أدى إلى حدوث تغير في مفهوم التصوف لدى الشرفاء الوزانيين ولطبيعة علاقتهم بأتباعهم. فتكاثر عدد هؤلاء وتنامي أعباء التسيير اليومي لشؤون الزاوية لم يعد يسمح للشيخ بأن يكون مربيا ودالا على الطريق عبر صحبة المريد والاحتكاك به. فمولاي الطيب (الشيخ الرابع، ت 1767) كانت «جل تربيته للمريدين بالنظر والهمة، حسب صاحب *الروض المنيف*، لأن التربية بالاصطلاح قد اندثرت لضعف حال المريدين وقلة الرغبة في الدين وكثرة الاقبال على الدنيا وإعراض الناس عن الآخرة»(11)، وهو تعليل يضع بالطبع مسؤولية تدهور العقيدة الصوفية بعيدا عن الزاوية.

هذه النظرة الجديدة للتصوف ستفرز علاقة من نوع جديد بين الشيخ والأتباع. فبالنسبة لشيوخ الزاوية المتأخرين لاتتحدث كتب المناقب عن المريدين ولكن عن «خدام الدار السعيدة» الذين يتوارثون خدمة الشرفاء ويحجون إلى وزان مرة في السنة على الأقل طلبا لبركتهم. إن العلاقة بين الشرفاء وأتباعهم أصبحت علاقات زبونية صريحة تقوم على خدمة «الدار» مقابل البركة. أما دائرة المريدين الذين يستحقون هذه التسمية فأصبحت محصورة في نُخبة محدودة إذا ما قورنت بآلاف الأتباع الذين لا يحلمون إلا برؤية الشيخ والاقتباس من نور بركته. وحتى مقدمو الزاوية في القبائل والمدن، والذين كانوا قريبين من الأتباع، لم يكونوا دائما مؤهلين لتعويض شيخ التصوف لأنهم كانوا في كثير من الأحيان من الأميين. فمهمة المقدم لم تكن تسند دائما لأهل العلم من فقراء الزاوية(12). أما الاجتماع بشيخ الزاوية

(10) *الروض المنيف*، 2(نسخة خطية خاصة)، ص46.

(11) نفس المرجع، ص.20.

(12) مهمة المقدم لم تكن تسند دائما لأهل العلم من أتباع الزاوية، وفي مدينة فاس يذكر صاحب *نشر المثاني* أن أحد الفقهاء من المنتسبين لزاوية وزان تمرد على المقدم الذي عينه مولاي الطيب لأنه لم يكن في نظره مؤهلا لتلك المسؤولية، وعندما طلب منه شيخ الزاوية التراجع عن تصرفه أجابه قائلا : «أنا فقيه بن فقيه، والمقدم الذي وليت على الفقراء درّاز ابن جزار». محمد بن الطيب القادرى، *نشر المثاني*، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق الرباط،1977 ــ 1986، الجزء4، ص 234 ــ 235.

نفسه فلم يكن في متناول العامة من الأتباع. ويقدم محمد بن حمزة المكناسي، صاحب *الكوكب الأسعد*، وصفا دقيقا لطقوس استقبال هؤلاء من طرف سيدي علي بن أحمد (ت 1811) :

«كان رضي الله عنه إذا تصدر لزيارة الركبان يجتمع عليه خلق كثير بالدار المعروفة بدار السقف... فيخرج رضي الله عنه إلى الدار المعدة للزيارة فيقف بأسطوانها... ويقف خلفه من حضر من الشرفاء والطلبة والملازمين له وبين يديه خديمه... والجميع واقف على قدمه حالة الزيارة بحيث لايجلس إلى الأرض طال النهار أو قصر. فينادي مقدمه المذكور : أين بنو فلان أو أهل مدينة كذا ؟ فيدخل مقدمهم بين يدي الشيخ ليُعرّف إخوانه واحدا بعد واحد. ويشرعون في الدخول من أحد البابين ليكون خروج من دخل من الباب الأخرى ليلا يقع الازدحام، ويتمكن كل واحد من الكلام معه بما في ضميره من أمر ديني أو دنيوي، فيجيب كل واحد بما ظهر له من النصيحة حسب ماتقتضيه الشريعة المطهرة، فإن أراد أحد الداخلين تقبيل يده أو غيرها يقول له : «قل السلام عليكم !»... وإن دنا منه يريد تقبيل يده الشريفة... فيدفعه ليلا يتمكن من تقبيل إحدى يديه أو عضو من أعضاءه»[13].

لم يعد بوسع الأتباع إذن حتى الاقتراب من الشيخ فأحرى أن يطمعوا في تربيته لهم. والأتباع من جهتهم لم يكونوا يقصدونه رغبة في أخذ الأوراد بقدرما كانوا يقصدونه تبركا به والتماسا لدعاءه. ذلك أنه مع بركة دار مولاي عبد الله الشريف لم تعد هناك حاجة إلى التربية الصوفية.«فلو عرف الناس بقدر مولانا عبد الله الشريف، يقول سيدي علي بن أحمد، لما قالوا في السبحة إلا الحمد لله على معرفة دار مولانا عبد الله الشريف، فذلك يكفيهم عن الورد»[14].

زاوية بلا علماء

من أهم مايطبع الزاوية الوزانية أنها لم تحتضن حركة علمية هامة على غرار الزاوية الناصرية مثلا، وشيوخ الزاوية لم يكونوا من المهتمين بتحصيل العلوم، فاكتفوا بما تلقوه بمقر الزاوية من مبادىء الدين. ولم يخرج أحد منهم عن وزان طلبا للعلم،

(13) هذا الوصف نقله صاحب *الروض المنيف*، الجزء2، ص 189 ــ 190.

(14) نفس المرجع، ص150.

باستثناء مولاي عبد الله الشريف. ويذكر *نشر المثاني* أن مولاي التهامي (الشيخ الثالث، ت 1715) كان يكتفي بتعليم أبناءه القرآن والعبادات ثم يوجههم لتعاطي الأسباب(15). لذلك فنحن لانجد من بين شيوخ الزاوية من تعاطى للعلوم الصوفية والفقهية فألف فيها كما هو الحال بالنسبة لبعض الناصريين، ولم يبذل شيوخ الزاوية نفس الحماس الذي كان لدى الناصريين لجلب العلماء. وإذا حاولنا إحصاء العلماء الآفاقيين الذين اختاروا مدينة وزان مقرا لهم سوف نجد أن عددهم قليل جدا(16). كما كانت الزاوية تفتقر إلى تقاليد الرحلة إلى الشرق، والتي عادة ماكانت مصدر إغناء فكرى بالنسبة لزوايا أخرى. فالشرفاء الوزانيون لم يكونوا من المتحمسين كثيرا لأداء فريضة الحج، فأصحاب المناقب ينقلون عن مولاي عبد الله الشريف أنه كان يقول لأتباعه الذين يستشيرونه في موضوع الحج : «الناس يطوفون بالبيت سبعاً وأنا البيت يطوف بخيامي». وسيدي علي بن أحمد كان يقول لمن يطلب رأيه في نفس الموضوع : «إذا لم يتيسر لنا القدوم عليه ــ أي الرسول ــ فهو يقدم علينا في منزلنا»(17).

إن العجز الذي كانت تعاني منه الزاوية في المجال الفكري ساهم بدون شك في إفراغ تصوف الوزانيين من محتواه الصوفي، وبما أنه لم يكن للزاوية شيوخ علماء قادرين على تغليب وازع الشرع والسنة فإن اختلال التوازن بين ماهو روحي ودنيوي في الممارسة الصوفية للوزانيين أصبح أمرا لا مناص منه. لذلك فإن مايلفت الانتباه في مناقب الزاوية هو الجفاف الفكري الذي يميز الممارسة الصوفية لدى شرفاء وزان. فالمناقب جلها تأكيد على البركة والكرامات، وهي تكاد تكون خالية من أي نقاش لعقيدة التصوف ومذاهبه وشيوخه. كما أنها ــ باستثناء ما يتعلق بمؤسس الزاوية ــ خالية من الأسانيد الصوفية الطويلة والمتشعبة التي تملأ عادة كتب

---

(15) *نشر المثاني*، 4، ص 258.

(16) تذكر كتب التراجم إسمين لعالمين استقرا بمدينة وزان لمدة زمنية محدودة وهما محمد المشاط، المعاصر لمولاي عبد الله بن إسماعيل، ومحمد بن الحسن الجنوي (ت1789)، وكلاهما لجأ إلى وزان في ظروف سياسية خاصة تميزت بعدم الاستقرار بفاس بالنسبة للأول، وبضغوط مخزنية قوية تعرض لها الجنوي والذي فضل معها الابتعاد عن خدمة الدولة. ولقد حاول سيدي علي بن أحمد أن يجلب إليه علماء بارزين مثل محمد بن الحاج الرهوني (ت1815)، لكن هذه المحاولة تدخل في إطار جهوده لكسب «حاشية ملوكية» تتناسب وطموحات الزاوية عند مطلع القرن19.

(17) *الروض المنيف*، 2، ص191.

المناقب(18). هذا الفراغ العقيدي والفكري الذي عانت منه الزاوية سيملأه كتاب المناقب بما يناسب التحول الذي عرفته الزاوية، أي بالكرامات التي تمجد النسب الشريف وتبرز العناية الالهية التي خص بها آل البيت.

شيوخ التسيير

تمكنت الزاوية الوزانية في ظرف وجيز نسبيا من أن تكسب عشرات الآلاف من الأتباع وأن تحقق تراكما ماديا هاما فرض على شيوخ الزاوية أن يخصصوا نسبة متزايدة من وقتهم ومجهودهم لتدبير المشاغل اليومية. فبعد أقل من قرن على تأسيسها تحولت وزان من قرية إلى مدينة(19)، وكل نشاطها كان يدور حول الزاوية. واتسع نفوذها الروحي ليصل إلى مناطق بعيدة مثل توات وسجلماسة والمغرب الأوسط، وأقيمت لها فروع في عدة مدن مثل فاس والرباط وسلا ومكناس، وملك شرفاء وزان الأصول وتعاطوا للزراعة وتربية الماشية (20).وقد بدأ شيوخ الزاوية منذ وقت مبكر يوجهون أبناءهم للاستقرار بالمدن والمناطق النائية حيث كانوا يشرفون على أملاك الزاوية ومصالحها معللين ذلك التوجه بحرصهم على أن لايقع للشرفاء طمع في الناس(21). وكانت الهدايا والزيارات التي تتوصل بها الزاوية مصدراً آخر من مصادر التراكم، وكذلك المحاصيل الزراعية التي تتجمع لدى مقدمي القبائل عن عمليات الحرث الجماعي (توايز)(22). إن الانطباع الذي يتجلى من كتاب *الكوكب الأسعد* هو أن الزاوية كانت تتجمع لديها مبالغ هامة من المال «حتى أن من عاين مايدخل على هذا الشيخ (سيدي علي بن أحمد) من الأموال النقدية وغيرها يقول أن هذه الأموال لا تدخل على أحد من ملوك المغرب»(23). لايهمنا هنا حجم التراكم المادي الذي حققته الزاوية بقدر مايهمنا أن نعرف أن تسيير شؤون الزاوية كان يفرض وجود جهاز إداري لايخلو من تعقيد. فإلى جانب الشيخ كان هناك

(18) قارن ترجمة مولاي عبد الله الشريف عند عبد السلام بن الخياط القادري (*التحفة القادرية*، الجزء1)، وهي مثقلة بالأسانيد الصوفية، مع تراجم بقية شيوخ الزاوية، التي تكاد تكون خالية من هذه الأسانيد.

(19) *نشر المثاني*، 4، ص179.

(20) نفس المرجع، ص178.

(21) نفس المرجع ص258.

(22) *الروض المنيف*، 2، ص 210.

(23) نفس المرجع، ص184.

المقدم الرئيسي المقيم بوزان والذي يتولى الاشراف على كل ماهو مادي في حياة الزاوية. فإليه كان مقدمو القبائل والنواحي يدفعون الهدايا، ومقدمو القبائل والمدن كانوا عبارة عن أمناء محليين يجمعون أموال الزاوية فيصرفون جزءا منها محليا ويوجهون الباقي للزاوية الأم. وطبعا كان على الشيخ أن يتعهد المقدمين بالمراسلة المستمرة، ويتدخل لفصل النزاعات بين القبائل إلى غير ذلك. هذه المشاغل، التي لم تزد مع الزمن إلاتعقيدا، لم تترك لشيوخ الزاوية مجالا كبيراً للتفرغ للاهتمامات الروحية، فأصبحوا مجرد حراس مؤتمنين على ما ورثوه عن أسلافهم، يديرون شؤون الزاوية ويعيشون على رصيد الماضي، أو كما قال مولاي الطيبب للتاودي بن سودة، شيخ الجماعة بفاس، عندما تساءل عن قلة كراماته : «إن مولاي التهامي قال لي اجلس هاهنا تلقى الناس. هذا ماسمعت منه !»(24) فالشيخ يظهر للمتبصرين من معاصريه مُجرداً من الكرامات ومن كل قدسية، لكن مناقب الزاوية تذكر له مع ذلك من الكرامات مالايقل عن كرامات غيره من الشيوخ، الشيء الذي يدل على أن هالة القدسية التي تضفيها المناقب على شيوخ الزاوية تأتي متأخرة ويلعب فيها مؤلفو المناقب دورا أساسيا.

المجال المحظور

كان للشرفاء الوزانيين تصور واضح لحدود مجالهم وهو مجال روحي صرف. ولم تغريهم الخلافة السياسية لأنهم وجدوا في «الخلافة القطبانية» مايناسب التشريف والرفعة التي خصّهم بها الله، وهذه الخلافة الروحية أعظم شأنا لأنها تشمل الكون كله، قال سيدي محمد بن عبد الله الشريف، الشيخ الثاني للزاوية : «طلبت من الله أن يعطيني المشرق والمغرب، عاص ومطيع، بإنسها وجِنّها، كل من دخل داري وحفظ ذكري كان آمنا يوم القيامة من النار لاسبيل لها عليه، فأعطاني ذلك والحمد لله»(25). أما «صاحب الوقت» فخلافته محدودة في الوقت والمكان ولاتخوله قدرة التصرف التي يتمتع بها الشيخ. وإشارة المناقب إلى الكيفية التي تم بها الفتح لمولاي عبد الله الشريف، والتي هي عبارة عن مبايعة الكون له، إشارة لاتخلو من أهمية، خاصة وأن المبايعة تمت بشكل لايختلف عن مبايعة السلطان، ذلك أن مولاى عبد الله الشريف سمع وهو يسير التراب والحجر والنبات والشجر يناديه بالنصر والتأييد،

(24) سليمان الحوات، *الروضة المقصودة في مآثر بني سودة*، مخطوط الخزانة العامة ك2351، ص 148.

(25) *الروض المنيف*، 1 (ميكروفيلم خزانة العامة، رقم98) ص46.

ويقول بلسان فصيح : «الله ينصر مولانا عبد الله الشريف !»(26) ومع ذلك فإن هذا التصور لمجال الزاوية لم يكن يعني بالنسبة لشيوخها الانقطاع عن أمور الخلق وتجاهل مصالح المسلمين. فوظيفة الزاوية هي قبل كل شيء وظيفة دينية اجتماعية تشمل الايواء والاطعام والحماية والمصالحة. لكن الاعتناء بأمور الخلق لايهم الزاوية وحدها، أي أن الحدود بين مجال الزاوية ومجال السلطان ليست دائما واضحة، فمفهوم الحُرم على سبيل المثال يخول للزاوية بأن تفتح أبوابها لمن لجأ إليها، ولا يوجب عليها مبدئيا أن تنصب نفسها حكما في شأنه، إلا أن السلطة السياسية لها فهمها الخاص لمبدأ الحُرم. «إن حقيقة الزاوية، يقول المولى سليمان، أن يلجأ إليها كل من هرب إلى الله من ظالم، وليست مهربا للظالمين»(27). ثم إن الزاوية بحكم مصالحها المادية ومصالح أتباعها لايمكن أن تبقى خارج المجال السياسي، بل قد تجد نفسها أحيانا مضطرة لتبني موقف سياسي كما حدث خلال فترة الاضطرابات التي تلت وفاة المولى اسماعيل(28). فإمكانيات المواجهة بين الطرفين دائما موجودة، ولو اقتصرنا فقط على مسألة الحرم لوجدنا أنها شكلت نقطة خلاف دائم بين الزاوية والمخزن. فكيف تقدم المناقب علاقة الزاوية بالسلطة السياسية ؟

يجب أن نشير هنا إلى أن المناقب وإن كانت مليئة بالاشارات إلى علاقة الزاوية بالسلطة السياسية فهي تلتزم الصمت بالنسبة لكثير من الوقائع التي يمكن أن يسبب ذكرها إحراجا للزاوية، كما أنها تسكت عن المواجهات التي لم تدر لصالح هذه الأخيرة والتي صعب تحويلها إلى كرامات(29). ولا تذكر المناقب عادة إلا الوقائع

---

(26) *تحفة الاخوان*، ص39.

(27) رسالة من مولاى سليمان إلى سيدي علي بن أحمد (1796 م)، *تاريخ الضعيف*، تحقيق العماري، الرباط،1986، ص 269.

(28) خلال هذه الفترة وجدت الزاوية نفسها مضطرة للتعامل مع المولى المستضيء وحليفه القائد أحمد بن علي الريفي نظرا لعدم تمكن المولى عبد الله من بسط سلطته على المناطق الشمالية. ومناقب الزاوية تنفي وجود أي تواطؤ بين الوزانيين والقائد الريفي المذكور، بل تذهب إلى القول أن سحق حركة الريفي من طرف مولاي عبد الله (1743 م) كان بفضل بركة مولاي الطيب، *الروض المنيف*، 2، ص 25 ومابعدها.

(29) من الأزمات التي عرفتها العلاقات بين الزاوية والمخزن والتي سكتت عنها المناقب الأزمة المترتبة عن إجارة مولاي الطيب لقائدين تمردا على السلطان مولاي عبد الله، (الضعيف، 159 ــ 160) واغرام سيدي محمد بن عبد الله الزاوية مبالغ مالية هامة في سنة 1781 (ابن الحاج، *الدر المنتخب*، مخطوط الخزانة الحسنية رقم1920، ص 331).

التي من شأنها إثبات بركة الشرفاء، لذلك فالرجوع إلى المصادر التاريخية يصبح أمرا ضروريا لتتبع العلاقة بين الزاوية والمخزن أو لتفسير ما أُبهم من الكرامات التي كثيرا ماتحور الحقيقة لفائدة الزاوية. ويبقى الهدف الذي ترمي إليه كرامات الزاوية في علاقتها مع المخزن هو إظهار تفوق بركة الشرفاء وتعليل وجود الزاوية كعنصر أساسي لتوازن المجتمع واستقراره. فالشيخ عندما يتدخل للمصالحة بين القبائل أو للتوسط بين القبائل والمخزن فإنه يقوم بواجبه الديني في تعزيز جانب أمير المؤمنين وخدمة الخلق بإطفاء نار الفتنة. فخدمة الشيخ للسلطان ليست تنقيصا من جانب الشرفاء بل دليلا على أن كلمتهم تنفذ عندما تعجز جيوش السلطان، وعلى أن بركتهم تعلو على بركة السلطان المتآكلة بفعل ممارسة السلطة. هذا التأويل رفضته الدولة باستمرار. فالسلطان يرفض أن يرى في الزاوية أكثر من مظهرها الدنيوي الذي أصبح طاغيا على جانبها الديني. فما يسميه الشرفاء بركة لايعدو أن يكون بالنسبة للسلطان ناموسا يُلجأ إليه في كسب الرزق. فأولاد مولاي عبد الله الشريف، يقول المولى سليمان، يأكلون بجدهم مولاي عبد الله الشريف كما يأكل الشرقاويون بجدهم امحمد الشرقي[30]، كما يرفض المولى سليمان أن يكون للشرفاء الوزانيين فضل ديني لامن ناحية النسب ولا من ناحية العلم والتدين[31].

(30) *الروض المنيف*، 2 ص 115.

(31) رسالة مولاي سليمان إلى سيدي علي بن أحمد (1792م)، مخطوط الخزانة العامة م1264، ص 365. يقول المولى سليمان في هذه الرسالة مخاطبا شيخ الزاوية : «وليس لك والحمد لله طريق تدل بها على الله إلا ولنا يد أطول من يدك، من حفظ القرآن والتفقه في الدين وطهارة النسب».

خلاصة

إن كتب المناقب هي بالضرورة مرآة للممارسة الدينية والاجتماعية لمن ألفت فيه، ومناقب الزاوية الوزانية تعتبر خير معبر عن التصور الذي كان لشيوخها لوظيفتهم الدينية والاجتماعية. وإذا كانت هذه المناقب غير كافية في حد ذاتها لكتابة تاريخ الزاوية أو المحيط الذي نشطت فيه، فإن قيمتها لاتعوض عندما يتعلق الأمر بتحديد الاطار الفكري الذي كيّف ممارستها. فالمناقب ليست إنتاجا فكريا خارجا عن الزاوية، بل هي جزء من نفس المؤسسة الدينية، وأداة من أدواتها التي توظف لضمان الاستمرارية عبر صيانة متجددة لرموز المشروعية الموروثة.

إن تغليب النسب الشريف على غيره ضمن صيغة التصوف الوزاني جعل كتاب المناقب يولون أهمية خاصة لإثبات النسب. فرمز المشروعية الدينية لدى الشرفاء الوزانيين هو البركة الموروثة. وإذا كانت العقيدة الصوفية تضعف وتتلاشى مع الزمن فإن النسب رصيد دائم لايتطلب غير الصيانة والرعاية، وخير وسيلة لصيانته هي دعمه بالكرامات، كرامات لا تعكس الزهد والتدين والصلاح بقدرما تعكس التشريف الذي خص به الله آل البيت، فهي كرامات تنبع من النسب لتصب فيه من جديد.

ولكن كرامات الشرفاء لاتوظف فقط لخدمة النسب، ذلك أنها تمثل في نفس الوقت تأكيدا لمشروعيتهم الصوفية، وهي مشروعية تورث كما يورث النسب، فالشيخ يصبح شيخا ليس فقط لأنه شريف يتوفر على البركة ولكن كذلك لأنه ورث «السر» ممن سبقه بعد أن اختارته العناية الإلاهية للخلافة. وهنا يأتي دور المناقب في إثبات صحة الاختيار الإلاهي أو مايعبر عنه في الأدب الصوفي ب«الخصوصية»(32).

---

(32) وراثة السر لاتتم بالضرورة عبر وصية السلف للخلف لأن الاختيار هو اختيار الهي في المقام الأول،

وأخيرا فإن المناقب تساهم في الحفاظ على هالة القدسية حول الزاوية وشيوخها بتبرير سلوك هؤلاء ودفع الشكوك والشبهات عنهم[33]، وبذلك تصبح أداة أساسية لترسيخ اعتقاد الاتباع وضمان استمرار علاقة التبعية القائمة بين الزاوية وخدامها، خاصة في وقت اتسعت فيه الهوة بين عقيدة صوفية متآكلة وممارسة اجتماعية طغت عليها الاهتمامات الدنيوية بقدرما ابتعدت عن الأصل.

فوصية سيدي علي بن أحمد لولده التهامي بأن يكون هو المتولي لشؤون الزاوية من بعده لم يمنع جل أتباع الزاوية من مساندة أخيه العربي لأنهم كانوا يرون أنه هو المخصوص بسر والده دون إخوته» (*الروض المنيف*، 2، ص 161).

(33) لايخفي كتاب المناقب قصدهم بهذا الشأن. فصاحب *التحفة القادرية* يعتبر أنه من الواجب أن يُلتمس للشرفاء «أحسن المخارج لهفواتهم، وانزالهم في ذلك على بساط التنزيه والترفيع والتنويه... لسبق عنايته تعالى بهم» (الجزء 1، ص 38، 41).